

مفهوم الإنسان

هـ

أبي حيّان التوحيدي

ماجدة محناية

عصر التوحيدي

عاش التوحيدي في العصر العباسي الثالث، الذي فسدت فيه عصبية بني العباس، وتغلغلت فيه الأعاجم وتسلّطت على أمور الدولة، وما إن دخل القرن الرابع حتى أخذت دولة الخلافة تضوّل وتراجع، ولم يك ينسلخ الربع الأول من هذا القرن حتى سيطر بنو بويه على المناطق الجديدة من فارس وبسطوا سلطانهم على شيراز.

فكان عصر البويهيين أعجوبةً في انقسام وانتشار الفوضى وذيوع الفتنة والاضطراب والعبث بسلطان الخلفاء والتحكّم في مصائرهم، وكانت الحياة الاجتماعية متأثرةً إلى حد كبير بالأوضاع السياسية، فكان فقدان الأمن وعدم الاستقرار سبباً في إيجاد الفوارق الطبقيّة بين الناس، وفي فشو الترف والبذخ.

وعلى الرغم من هذا الانحطاط السياسي والاضطراب الاجتماعي فإننا نجد رقيّاً في الحياة العقلية ففي هذه "المملكة نشأت زمرة صالحة من العلماء والأدباء، بقوة التسلسل المنبعثة من عمل القرن الثالث... فكان ما كان من تأليف المجالس السرية من الفلاسفة وأرباب العقول الكبيرة، وكان التوحيدي أحد سلاطين تلك الحلبة حقبةً من الزمن... فكان عجباً في نفسه ودرسه"^(١).

^(١) علي محمد كرد- (أمراء البيان)- بيروت ١٣٨٨- ط ٣- ٤٤٥/٢.

من هو التوحيدي

"هو علي بن محمد بن العباس أبو حيان"^(١) ولقب بالتوحيدي لأن "أباه كان يبيع التوحيد ببغداد وهو نوع من التمر بالعراق، وعليه حمل بعض من شرح ديوان المتنبي قوله:
يترشفن من فمي رشقات
هن فيه أحلى من التوحيد"^(٢)

"وقال شيخ الإسلام ابن حجر: يحتمل أن يكون إلى التوحيد الذي هو الدين، فإن المعتزلة يسمون أنفسهم أهل العدل والتوحيد"^(٣).

أصله:

اختلفوا في أصله وبلده: عربي أم فارسي؟ شيرازي أم نيسابوري أم واسطي عراقي؟ ففي نسبته إلى العرق يقول محمد كرد علي "هو عربي، وما كان يعرف الفارسية، ولو ولد في فارس لكان يتكلم بها"^(٤).

وفي نسبته إلى البلد يقول ياقوت الحموي: "شيرازي الأصل وقيل نيسابوري، ووجدت بعض الفضلاء يقول له الواسطي"^(٥).

مولده ووفاته:

من المرجح أن التوحيدي ولد في أوائل العقد الثاني من القرن الرابع، أما وفاته فيذكر الباحثون "أنه كان على قيد الحياة في عام (٤٠٠)^(٦) وأنه عاش إلى حدود الأربعمئة في بلاد فارس، والراجح "أنه توفي في شيراز سنة (٤١٤) هـ"^(٧).

عقيدته:

اختلفوا أيضاً في عقيدته، فيذكر الزركلي أن ابن الجوزي قال: "زنادقة الإسلام ثلاثة: ابن الراوندي والتوحيدي والمعري، وشرهم التوحيدي لأنهما صرحا ولم يصرح"^(٨).

(١) الحموي ياقوت - (معجم الأدباء) - ج ١ د. أحمد فريد الرفاعي - القاهرة بدون تاريخ - دار المأمون ١٥ / ٥.

(٢) ابن حلكان - (وفيات الأعيان) - ج ١ محمد محي الدين عبد الحميد - القاهرة ١٣٦٧ - ط ١ - ٤ / ١٩٧.

(٣) السيوطي - (بغية الوعاة) - ج ١ محمد أبو الفضل إبراهيم - ١٣٨٤ - م الباي الخليلي - ط ١ - ١٢ / ١٩٠.

(٤) علي محمد كرد (أمراء البيان) - ٤٤٩ / ٢.

(٥) الحموي ياقوت - (معجم الأدباء) - ١٥ - ٥.

(٦) دائرة المعارف الإسلامية (الفندي - الشتاوي - خورشيد - يونس) ١٩٣٣ - المجلد الأول (٣٣٣).

(٧) علي محمد كرد - (أمراء البيان) - ٤٤٩ / ٢.

(٨) الزركلي - (الأعلام) - ١٤٤ / ٥.

وينتسب أبو حيان إلى مدرسة أبي سليمان المنطقي التي أنشأها يحيى بن عدي وهي مدرسة الفلسفة الإلهية، التي كانت ترى الفصل بين الفلسفة والدين، ولا ترضى الجمع بينهما، وتعتقد أن لكل مجاله الخاص في النفس الإنسانية.

"وبين الفلاسفة عاش أبو حيان في ظل الحقيقة الفلسفية، وهي حقيقة مخترة لآلامه النفسية، مروية بعض الشيء ظمأ العقلي، وهي في زمانه حقيقة لا تقبل للنقض، لأنها تستطيع أن تحل كل مشكلة، وأن تجد جواباً لكل سؤال.

وقد كانت أسئلة التوحيدي من الاتساع والدقة والعمق، بحيث تفتح المجال أمام ابتكار كثير؛ لأنها تستدعي معرفة نفسية وبيولوجية وطبيعية وانثروبولوجية"^(١٦).

وهكذا استطاع التوحيدي أن يقدم لنا في مؤلفاته رؤية جدلية متكاملة للمفاهيم: الإنسان والمعرفة والجمال والأدب، تلك المواقف التي تتلاقى مع موقف الحضارة العربية الإسلامية للعام من هذه المفاهيم.

وقد تبنّى قاعدة أقام عليها فكره المعرفي يمكن تلخيصها، بأنها العلاقة بين المخلوق والمخلوق في ظل الإسلام.

ثقافته ومصادر آرائه المعرفية:

عاش التوحيدي طويلاً ولا ريب في أن هذا ساعده على كثرة الإطلاع والتأليف في موضوعات شتى عرفت في عصره، الذي اشتهر بالذهن العلمي الموسوعي. ويعود تنوع ثقافته إلى حياة التشرّد والاستتار التي كان يحياها، والتي مكنته من القراءة والكتابة والتدوين مما أكسبه غنى في المعلومات، وأكسب آثاره متعة وطرافة.

وكان "أميناً في النقل"^(١٧) حاد الذكاء حاضر البديهة النقط ثقافته من بطون الكتب ومن أفواه للمتحدثين.

"وللتوحيدي شخصيتان: شخصية الأديب الذي يصدر فيما يكتب عن للطبع والنوازع الوجدانية معبراً عن ذلك بواسطة نثر فني منمق، وشخصية العالم الباحث للمؤلف الذي شارك بأنواع المعرفة في عصره، واشترك بالمباحثات العلمية، والمناظرات الفلسفية بتصويب وافر، فنونها مؤرخاً بذلك مرحلة من مراحل التطور العقلي والعلمي في عصره"^(١٨).

وهكذا أمضى حياته متعلماً ومعلماً، فكان العلم على اختلاف أنواعه هدف حياته، وكان يخلط بثتى البيئات الاجتماعية، فعاش الوزراء والكتاب والفلاسفة والفقهاء والنحويين والأدباء والمتصوفة والزهاد.

^(١٦) المصدر السابق - ص ١٠٥.

^(١٧) التوحيدي (المقاسبات)، نج | محمد توفيق حسين - بيروت ١٩٨٩ - دار بيروت - ط ٢ - ص ١٦.

^(١٨) التوحيدي - (رسائل أبي حيان التوحيدي) - نج | إبراهيم الكيلاني - دمشق ١٩٨٥ - دار طلاس - ط ١ - ص ٥٨.

درس النحو على يد أبي سعيد السيرافي وعلي بن عيسى الرُّماني، والفقه الشافعي على يد أبي حامد المزوردي وأبي بكر الشافعي، وحضر دروس يحيى بن عديّ وأبي سليمان المنطقي وغيرهما من الفلاسفة مثل أبي الحسن العامري، فاستطاع بذلك أخذ الفلسفة عن ورثة علوم الأقدمين في عصره، والاستفادة من كل المصادر التي توافرت في عصره لإيجاد إجابات عن تساؤلات العقل والنفس في لقاتهما مع معطيات الواقع الاجتماعي والاقتصادي والثقافي.

وبإمكاننا القول إن ثقافة القرن الرابع مثلها التوحيدي خير تمثيل، فكانت ثقافته جامعة لكل المناهج التي أنتجتها الحضارة العربية الإسلامية، وهذه المناهج هي منهج الفلاسفة والمتكلمين ومنهج الفقهاء ومنهج المتصوفة.

فالتوحيدي يمثل عصره بكل ما حوى من تمازج بين الفلسفات والكلام، والفقه والتصوف، والعلم والأدب، فهو صورة مثالية للمنتقف الموسوعي في عصره.

"ويمكن أن نضع ثقافة التوحيدي تحت مصطلح الإنسانية، ونقصد به أن تلك الثقافة تقوم على للعقل أولاً، ولكنها لا تعتبره كافيًا، وتنفي أن يكون أداة المعرفة الوحيدة، وترى أن الوسيلة الأهم للوصول إلى الحقائق إنما هي النفس المتصلة بالعقل الأول المتصل بجوهره بالواحد الأحد.

هذه الثقافة تنطلق في رؤية كل ما في الحياة والمجتمع والكون من جهة الإنسان وترى أن كل ما في الكون إنما هو لخدمته في تحقيق إنسانيته"^(١٩).

ولعل خير من يصور شخصية التوحيدي العلمية هو ياقوت الحموي في قوله عن التوحيدي إنه: "فرد الدنيا الذي لا نظير له نكأة وقطنة وفصاحة ومكنة، كثير التحصيل للعلوم في كل فن حفظه، واسع الذراية والرواية.. وكان متفتناً في جميع العلوم في النحو واللغة والشعر والأدب والفقه والكلام على رأي المعتزلة وكان جاحظياً يسلك في تصانيفه مسلكه ويشتهي أن ينتظم في سلكه"^(٢٠)..

مؤلفاته وآثاره:

من آثاره الأدبية الإمتاع والمؤانسة، والصدقة والصديق، والهوامل والشوامل، والبصائر والنفائس، ومطالب الوزيرين، والنوادي، وتقريظ الجاحظ، ورسالة الحنين إلى الأوطان، ورسالة في علم الكتابة.

من آثاره الفلسفية للمقابسات، والإقناع، والتذكرة التوحيدية، ومن آثاره الصوفية الإشارات الإلهية، والحج العقلي إذا ضلّ القضاء عن الحج الشرعي، ورياض العارفين، والزلفى، ورسالة في أخبار الصوفية، ورسالة الحياة.

^(١٩) د. الصديق حسين، (العلامات بين مفهومي الإنسان والأدب عند التوحيدي) - مجلة بحوث جامعة حلب - العدد (٢٨) لعام ١٩٩٥ -

سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية - ص ١٥٥.

^(٢٠) الحسوي ياقوت - (معجم الأدباء) - ٦/١٥.

مفهوم الإنسان في الفكر العربي الإسلامي:

في بداية البحث أودّ الحديث عن مفهوم الإنسان في الفكر العربي الإسلامي لأنني انطلقت من هذا الفكر واعتمدت عليه في دراستي؛ بالإضافة إلى أن التوحيدي الذي اخترته قد قدّم رؤية جدلية متكاملة لمفهومي الإنسان والمعرفة، ويبيّن العلاقة المتكاملة بينهما التي انسجمت انسجاماً تاماً مع موقف الحضارة العربية الإسلامية من الإنسان.

وربما لا نجد مفكراً من مفكري المشرق العربي، اهتم بالبعد الإنساني، مثل اهتمام التوحيدي وخاصة أنه كان في كتاباته معبراً عن جوانب نفسية وجودية.

فالحضارات عموماً تأسست وانتظمت وتطورت معتمدة على مفاهيم ثلاثة وهي الإله والإنسان والكون، وكل حضارة من الحضارات قد غلبت مفهوماً واحداً من هذه المفاهيم، فرأت المفهومين الآخرين من خلاله.

فالحضارة التي تغلب مفهوم الإله هي حضارة إلهية يسود فيها الفكر الغيبي، والحضارة التي تغلب مفهوم الإنسان هي حضارة بشرية يسود فيها الفكر الإنساني، أما الحضارة التي تغلب الكون فهي حضارة مادية يسود فيها الفكر الطبيعي.

إن العلاقة بين هذه المفاهيم علاقة وشيجة قائمة في داخل الحضارة الواحدة، ولكن المعطيات السياسية- الاجتماعية، والاقتصادية- والثقافية، المتغيرة بحسب الزمان والمكان، تتدخل في تحديد تلك العلاقة وفي تغليب أحد تلك المفاهيم على الأخرى.

لقد قامت الحضارة العربية الإسلامية على تغليب مفهوم الإله، ورأت من خلاله مفهومي الإنسان والطبيعة فما هما إلا مظهر خلق الله، واحتفظت هذه الحضارة بالعلاقة العمودية بين الله والإنسان والكون، وهي علاقة تحدد مفهوم الحياة الإنسانية وغاياتها. فما الحياة الدنيا إلا مرحلة، على الإنسان أن يوازن فيها بين الجسد والنفس استعداداً للحياة الأبدية في الآخرة، والإنسان جزء من الجماعة وهدفه الحياة الباقية ووجوده في الحياة الدنيا وسيلة لإغناء الحياة الآخرة.

لقد وضع الفكر العربي الإسلامي الإنسان في مركز وسط بين الله وبقية الكائنات، فهو يحتلّ قمة الهرم الذي توجد في أسفله العناصر الأربعة التي تدخل في تكوين كل ما يأتي فوقها (الجماد فالنبات فالحيوان) كلها تختلف عن الإنسان في أنها لا تملك العقل الذي فضله عرف الإنسان الله^(١١).

إن مفهوم الإنسان في الفكر العربي الإسلامي هو مفهوم الإنسان الكامل الذي استطاع الوصول إلى إدراك جوهره، والمعرفة هي التي تساعد على اكتشاف جوهره في أشدّ علاقاته الجدلية بالمفردات.

فالكمال هو الوصول إلى الجوهر، ولا يتم إلا بالمعرفة التي هي أداة الإنسان لبلوغ الكمال. وكل

(١١) د. الصديق حسين- (مقدمة في نظرية الأدب العربي الإسلامي)- منشورات جامعة حلب كلية الآداب والعلوم الإنسانية- عام ١٩٩٣- انظر ص (٦٨-٦٩).

ما أنتجته الحضارة العربية الإسلامية من فكر وأدب وعلوم يهدف إلى مساعدة الإنسان على تحقيق هذا المفهوم والوصول إلى مرتبة الإنسان الكامل.

خلق الإنسان:

اعتمد التوحيدي في مفهومه للإنسان على القرآن الكريم، فقد تمّ الوجود الإنساني على مرحلتين: وجود بشري جسدي فوجود عقلي إنساني.

الأول يقابل المرحلة الأولى من الخلق الطيني، أما الثاني فيقابل المرحلة الثانية التي تلت التسوية والنفخة، وكل هذا تمّ في القسم الغيبي الذي لا دخل للإنسان فيه، كما في قوله تعالى: ﴿وإذ قال ربك للملائكة إني خالق بشراً من طين، فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين﴾^(٢٢).

فالإنسان "شخص بالطينة، ذات بالروح، جوهر بالنفس، إله بالعقل، كلّ بالوحدة، واحد بالكثرة، فان بالحس، باقي بالنفس، ميت بالانتقال حي بالاستكمال، ناقص بالحاجة، تام بالطلب، حقير في المنظر، خطير في المخبر، لب العالم، فيه من كل شيء شيء، وله بكل شيء تعلق، صحيح بالنسب إلى من نقله من العدم... وأخبار الإنسان كثيرة وأسراره عجيبة، من عرفه فقد عرف سلالة العالم ومصايبه، وقد حوى جوهره شبهاً من كل ما يعرف ويرى...:"^(٢٣).

ومرحلة الخلق الطيني تقوم على عناصر أربعة وهي التراب والماء والهواء والنار، يقول التوحيدي عن هذه المرحلة.

"الإنسان مركّب من الأعضاء الآلية بمنزلة الرأس واليدين والرجلين وغيرهما، ثم كل واحد من هذه الأعضاء مركّب من الأعضاء المتشابهة الأنواع بمنزلة اللحم والعظم والعصب والشریان، ثم كل واحد من هذه الأعضاء مركّب من الأخلط الأربعة التي هي الدم والبلغم والمُرِّيَّان^(٢٤)، ثم كل واحد من هذه الأخلط مركّب من الأسطقسات الأربع التي هي النار والهواء والأرض والماء، ثم كل واحد من هذه الأسطقسات مركّب من الهيولى والصورة"^(٢٥).

وهذه الأخلط الأربعة هي عناصر الإنسان وأصوله، ومن تركيب هذه الأخلط تكوّنت الصورة (العرض)، والإنسان مركب من هيولى وصورة، والمقصود بالهيولى النفس (الجوهر)، والنفس "روح الله منبجسة بتوسط العقل"^(٢٦).

وهذه النفس هي النفس الكلية، ويدخل منها قيس في الإنسان فتسمى عند ذلك النفس الناطقة وبها صار الإنسان ناطقاً عاقلاً عن سائر الحيوان.

^(٢٢) القرآن الكريم - سورة الحجر - الآيتان ٢٨-٢٩ الحجر.

^(٢٣) التوحيدي (المقاسبات) - مقابلة (١٠٦) - ص ٣٧٦.

^(٢٤) المُرِّيَّان المقصود المرثان (المرّة السوداء والمرّة الصفراء).

^(٢٥) التوحيدي (الإمتاع والمؤانسة) - ٨٧/٢.

^(٢٦) التوحيدي (المقاسبات) - مقابلة (٩١) - ص ٢٩٨.

❖❖❖ التراث العربي ❖❖❖

والعلاقة بين الجواهر والعرض مرتبطة بقدرة العناصر الأربعة التي يتكون منها الإنسان على تلقي الفيض الإلهي. فالروح "جسم لطيف منبث في الجسد على خاص ما له فيه، فأما النفس الناطقة فإنها جوهر إلهي وليست في الجسد على خاص ماله فيه ولكنها مدبرة للجسد" (٢٧).

قال بعض الفلاسفة: "ليس هذا حكم النفس في شأنها مع البدن، لأنها واصلته في الأول عند مسقط النطفة، فما زالت تربيته وتغذيته وتحببه وتسويه حتى بلغ البدن إلى ما ترى ووجد الإنسان بها" (٢٨).

والروح سابقة في الوجود، والمادة سابقة في الخلق، والإنسان وجد بهذه الروح فאלله خلق الإنسان من طين ثم نفخ فيه من روحه، فالوجود الطيني سابق على الوجود الروحي، ولكن الكون الروحي هو الأسبق في الخلق، لأنه من الله والله واجب الوجود وهو الأول والآخر.

ويقول التوحيدي عن الخلقة والتسوية: "لولا أنه (خلقك فسواك فعدلك) متى كنت تستقل بذاتك؟ وكيف كنت تشرف على صفاتك، وبأي شيء كنت تميز مالك منك، وما عليك فيك، وما عندك بك؟" (٢٩).

فالإنسان يستمد معنى وجوده من الوجود الإلهي، وهو مرتبط بالله ارتباطاً وجودياً، ولا معنى لوجوده من غير الوجود المطلق ومن غير عنايته وتسويته، وهو لم يتركه في غياهب النسيان للضياع، وإنما احتفظ به وتكفل به.

الإنسان خليفة الله على الأرض:

لقد أمر الله تعالى الملائكة بالسجود لآدم وهذا السجود لم يكن للبشرية وإنما للإنسانية التي ظهرت بالنفخة الإلهية، ولأن الإنسانية شرفت بالجواهر بينما البشرية بالعرض.

يقول التوحيدي نقلاً عن علي بن أبي طالب (كرم الله وجهه): "إن الله جل جلاله أمر بما لم يرد ونهى عما أراد، أمر إبليس بالسجود ولم يرد أن يسجد، ولو أراد أن يسجد لما غلبت إرادة إبليس إرادة الله جل سلطانه، ونهى آدم عن أكل الشجرة وأحب أن يأكل منها ولو لم يحب أن يأكل منها لما غلبت محبة آدم محبة الله تعالى" (٣٠).

فالله منذ تلك اللحظة أنزل الإنسان إلى الأرض بإرادته، وجعله بفضل خليفة على الأرض وسخر جميع الكائنات لخدمته. وهذا يفسر لنا معنى خلافة الإنسان لله على الأرض، يقول التوحيدي معلقاً على هذا الكلام:

"تعلم أن الله سبحانه أنشأ العبد ثم تولاه ولم يخله من يده، وأن العبد يتصرف بين علمه وإرادته وأمره ونهيه في ظاهر تكليفه، وطرفاهما بين الحالتين يلتقيان، وكلتاها مستويتان.

(٢٧) التوحيدي - (الامتناع والمؤانسة) - ١١٣/٢.

(٢٨) المصدر السابق - ٢٠٣/١.

(٢٩) التوحيدي - (الإشارات الإلهية) - تح | د. رداد القاضي - بيروت ١٩٧٣ - دار الثقافة - ٢٨٦/١.

(٣٠) التوحيدي - (البصائر والذخائر) - تح | د. رداد القاضي - بيروت ١٩٨٨ - دار صادر - ط ١ - ٢١١/٥.

واعلم أن الخلق ظهر منه وثبت به، وانقلب إليه، أعني أنه أبداه وأنشأه في الأول، وهو غذاه وأنماه في الثاني، وهو قبضه ورقاه في الثالث باستطاعته، واستبذ بقدرته، وانفرد بحوله وقوته، واستغنى عن موجهه وحافظه، وإنما ركبت الشبهة على قوم من جهة أنهم تخطوا الأمر والنهي وهما أسس التكليف، وأوجبوا التمكين والتخير، وظنوا أن هذا القدر يفضل الحال بيننا وبين الله عز وجل فلا نؤتى إلا من قبلنا، ولا نلام إلا على فعلنا. واعلم أن الإنسان مطلق في صورة مقيد، ومختار في هيئة مضطر، ومرسل في حلية ممنوع...^(٣١).

فإن الله خلق الإنسان ونفخ فيه من روحه ثم تولى أمره في الدنيا، وهذا الإنسان كان يتصرف وفقاً لإرادة الله ولأمره ونهيه، وفي النهاية تقبض روحه فتعود الروح إلى بارئها.

ولكن هذا الإنسان ضلّ عندما عاش بجسده ذي الأصل الترابي فقط، وانفرد بأموره واستغنى عن خالقه فتخطى الأمر والنهي وهما أصل التكليف، وردّ كل ما يصيبه في حياته إلى قضية الجبر والاختيار وإلى القدر الذي كتبه الله له. والحقيقة أن هذا الإنسان مطلق ويظن أنه مقيد، ومختار ولكن في إطار الجبر، وعليه أن يحكم عقله ذا المصدر الإلهي في سلوكه الجسدي فيسمو بنفسه إلى المكان الذي صدر منه.

يقول التوحيدي: "واعلم أن الله خلقك، ورزقك وكمّلك، وميّزك وفضلك، وأضاء قلبك بالمعرفة، وفجر فيك ينبوع العقل، ونفى عنك العجز، وعرض عليك العزّ، وبين لك الفوز. بعد ذلك وعدك وأوعذك، وبعد أن وعظك وأيقظك، وبعدما حطّ عنك ما أعجزك عنه، أمرك بدون ما أقدرك عليه. وإنما بهذا كله إلى حظك ونجاتك، وعرضك به لسعادتك وخلاصك"^(٣٢).

لقد خلق الله الإنسان في أحسن تقويم فرزقه وكمّله بعقله فميّزه بالعقل عن الحيوان وفضله على سائر الكائنات، وجعله مختاراً وبين له الطريق الذي يوصله إلى النعيم من خلال الأمر والنهي فإذا ما امتثل لأوامر الله فاز ونجا واستطاع تحقيق جوهره الإلهي في أثناء حياته الأرضية وإلا فالنار مصيره يتطهر فيها من عوارض الجسد وأثامه ليعود نقياً كاملاً.

الإنسان جسد ونفس:

الإنسان بما هو مركب من جسد وروح فهو في مركز وسط بين الأجرام الناطقة العلوية والأجسام المادية الحية الوضعية، فهو بالنسبة إلى باقي الكائنات "لبّ العالم، وهو في الأوسط لانتسابه إلى ما علا عليه بالمماثلة، وإلى ما سفل عنه بالمشاكلة، ففيه الطرفان، أعني فيه شرف الأجرام الناطقة بالمعرفة والاستبصار والبحث والاعتبار، وفيه ضعة الأجسام الحية الجاهلة، التي ليس لها ترشح بشيء من الخير، ولا فيها انقياد له"^(٣٣).

^(٣١) المصدر السابق - ٢١١/٥.

^(٣٢) المصدر السابق - ٣٧/٧.

^(٣٣) التوحيدي - (المقاييسات) - مقابلة (٦٨) - ص ٢٣١.

التراث العربي

فالإنسان مركز المخلوقات وهو فوق العناصر الأربعة والجماد والنبات والحيوان وهو سيد العالم وفي قمة الهرم وتحت العقول العشرة التي يأتي في قمته العقل الأول وواجب الوجود، وهو بشر من جهة انتسابه إلى ما سفل عنه بالمشاركة، فيه صفة الجهل والاستعداد للانحدار إلى أسوأ من الحيوان الذي تتحكم فيه الغريزة، فهو كالعناصر الأربعة والجماد والنبات والحيوان، وهو من جهة انتسابه إلى ماعلا عليه بالمماثلة إنسان فيه شرف الجوهر وسموه فهو كالعقول العشرة والعقل الأول والواحد الأحد واجب الوجود، وهناك تواصل وتكامل بين الطرفين.

ولما كان جسد الإنسان جزءاً من هذا الكون ونفسه جزءاً من الأنفس الكلية، فإن هناك تواصلًا بين النفس الكلية والكون، وثمة تواصل آخر بين الجسد والنفس، وبما أن النفس جزء من النفس الكلية، فإن الجسد الإنساني جزء من العالم، إذاً هناك تواصل بين الجسد والعالم.

"فكل حيوان غير ناطق عادم لشرف الصورة، وكل حيوان ناطق واجد لشرف الصورة إلا أن الناطق ناطقان: ناطق في الذروة وناطق في الوسط. فالذي في الذروة الأجرام الناطقة النيرة العلوية، والذي في الوسط الإنسان الذي قد حوى بحده معنى النطق"^(٣٤).

فالإنسان إنسان بحده المنطقي فإذا صفا مما علق به من الأكدار والأدران وانبسط إلى ما كان عنه مركباً، وارتقى مم كان به محطوطاً، وخلع عنه عوارض الجسد فأنكشف له الحس عندها يعود الإنسان إلى أصله بانكشاف الحجب المادية وهذا الانكشاف لا يتم إلا بالمعرفة.

الإنسان إنسان بالنفس:

"فالإنسان حي ناطق مانت، حي من قبل الحس والحركة، ناطق من قبل الفكر والتمييز، مانت من قبل السيلان والاستحالة"^(٣٥).

فمن حيث هو شريك الحيوان، فذلك في الروح أي القوة المحركة في الجسد الإنساني التي يشترك فيها الإنسان مع سائر الحيوانات. يقول التوحيدي: "ولم يكن الإنسان إنساناً بالروح، بل بالنفس، ولو كان إنساناً بالروح لم يكن بينه وبين الحمار فرق، بأن كان له روح ولكن لا نفس له"^(٣٦).

والإنسان تحكمه غرائز ولكن هذه الغرائز لا تحتاج إلى تحريض إنما إلى توجيه لأنها مضبوطة بيولوجياً، أما الحيوان فغرائزه هي التي تتحكم فيه دون ضبط أو تدبير منه. ومن حيث هو مانت هو شريك الحيوان الذي يتبدل ويتحلل، ومن حيث هو ناطق هو إنسان عاقل يسعى إلى الكمال.

ولما كان الإنسان مركباً من نفس وجسد، فإن أشرف جزأيه النفس لأنها: "معدن كل فضيلة، وبها وبعينها يرى الحق والباطل في الاعتقاد، والخير والشر في الأفعال، والحسن والقبيح في الأخلاق،

^(٣٤) المصدر السابق - مقابلة (٦٨) - ص ٢٣٢.

^(٣٥) التوحيدي (الامتناع والموازنة) ١١٢/٣.

^(٣٦) المصدر السابق ١١٣/٢.

فالروح هي المحركة والمدبرة للنفس الإنسانية، والنفس بريئة من البدن ومستقلة بجوهرها وغنية بحقيقتها" وغير محتاجة إلى البدن إلا إذا أخذت البدن فاستعملته، وصرفت على لوازمه وأغراضه اللانقة به، فأما النفس ذات النطق والعلم والحكمة والبيان والفكر والاستنباط والعقل والنظر، فهي أعلى وأشرف من أن تكون بهذا الوصف بمعونة البدن وإرفاده، والأسباب الحادثة بالبدن العارضة له معروفة محصاة، وليست تلك من حقيقة النفس بسبب، وإن كان مجموع هذا كله يوجد في الإنسان أو بالإنسان... " (٤٣).

فالنفس ذات نطق وعلم وحكمة وبيان وفكر واستنباط وعقل ونظر، لذلك شرفت على البدن وعوارضه وأسبابه، وشرفت على معونته، وللنفس فضائل وللجسد كذلك قالت الفلاسفة:

"لنفس الحكمة وللجسد بإزائها التمام والكمال؛ وللنفس العدل، وللجسد الحسن والجمال؛ وللنفس الشجاعة، وللجسد القوة؛ وللنفس العفة، وللجسد الصحة. يقول التوحيدي: هذا كلام شريف واعتبار صادق، فكن جامعاً بين فضائل نفسك ومحاسن جسدك بالرغبة التامة في العلم، والنية الصادقة في العمل، والفكر الصحيح في الاستنباط... " (٤٤).

فالعلاقة بين الجوهر والعرض متكاملة ومتممة بعضها البعض وفق شروط وهي الرغبة في العلم والصدق في العمل والفكر الوقاد الصحيح الواعي.

العلاقة بين الإنسان والعقل:

إن وظيفة الإنسان في الحياة هي أن يبحث عن إنسانيته التي بها تتحقق سعادته، فقد وجد بشراً ولكنه أعطي القوة ليتمكن إذا ما استخدمها من اكتشاف إنسانيته، وهذه القوة الموجودة فيه هي العقل وبه يتمكن من تحويل الإنسانية فيه من الوجود بالقوة إلى الوجود بالفعل، وسبيل العقل المعرفة.

فالإنسان إنما هو إنسان بالقوة، وعندما يستخدم عقله في اكتساب المعارف التي تقوده إلى معرفة مظاهر خلق الله وتؤدي به من ثم إلى معرفة نفسه ومن ثم معرفة الله الخالق، فحينئذ ينتقل إلى حيز الوجود بالفعل.

يقول التوحيدي: "الإنسان صغير الحجم، ضعيف الحول، لا يستطيع أن يجمع بين شهواته وأخذ حظوظ بدنه وإدراك إرادته، وبين السعي في طلب المنزلة عند ربه بأداء فرائضه، والقيام بوظائفه، والثبات على حدود أمره ونهيه فإن صقق وجهه وقال: نعمل تارة لهذه الدار وتارة لتلك الدار فهذا المذبذب الذي لا هو من هذه ولا من هذه؛ ومن تخنث^(٤٥) وتلث لم يكن رجلاً ولا امرأة، ولا يكون أباً ولا أمأ... " (٤٦).

(٤٣) التوحيدي - (المقاسبات) - مقابلة (٩٧) - ص ٣٢٣-٣٢٤.

(٤٤) التوحيدي - (البصائر والذخائر) - ٦/٢٤٨.

(٤٥) يريد بالتخنث والتلث: اللين والتشدد.

(٤٦) التوحيدي (الامتناع والموانسة) - ١٥١/١٦.

فالإنسان ضعيف لا يمكنه أن يوفق بين إرادته في التحكم بشهواته وبين السعي لأداء الفرائض والامتثال لأوامر الله ونواهيه، والتوحيدي لا يرضى أن يقف الإنسان موقف المترجح المذبذب الذي لا هو من هذه ولا هو من هذه.

وليس على الإنسان "أن يدرك النجاح في العواقب وإنما عليه أن يتحرر في المبادئ"^(٤٧). فالإنسان الذي يعمل في دنياه ويطيع أوامر ربه ويعبده خير عبادة فإنه هو الذي ينجح ويفوز في النهاية، والذي يعمل لآخرته خير من الذي يعمل لدنياه.

ومنذ أن يولد الإنسان تبدأ ماهيته بالوجود ويتحقق هذا الوجود بالمعرفة وتكتسب هذه المعرفة بالوسائل والأدوات، وإذا اكتسبت هذه المعرفة اكتسبت الوجود.

فالإنسان كائن معرفي بمعنى أن وجوده يكمل من خلال المعرفة التي يكتسبها من الحياة، وهو يحدد المعرفة فتقوم المعرفة بتحديد مفهومه وتحديد معنى وجوده، ووظيفته في الحياة البحث عن إنسانيته ويستطيع الكشف عنها عن طريق العقل، وهو منذ التكوين الأول يكتسب المعرفة، لأن المعرفة سابقة على الوجود الإنساني وجدت منذ النفخة، فالله عالم وفي النفخة منح علماً.

فالمعرفة تمكنه قبل كل شيء من تحقيق إنسانيته ومعنى وجوده، ولعل هذا ما أراده التوحيدي بعبارته: "أنا أعوذ بالله من صناعة لا تحقق التوحيد ولا تدل على الواحد ولا تدعو إلى عبادته، والإعتراف بوحديته، والقيام بحقوقه، والمصير إلى كنفه والصبر على قضائه، والتسليم لأمره..."^(٤٨).

فوظيفة الإنسان العبادة والمعرفة، وسبيل المعرفة أن ينقي ما فيه من جزء إلهي حتى يعود إلى أصله العقلي، ولكنه ابتعد عن عقله وعن إنسانيته، ولا يستطيع صقل نفسه إلا بالمعرفة، وسبيل حصوله على الفضائل والأخلاق الحميدة هي سبيل حصوله على المعرفة، فالشر ناجم عن انغماس الإنسان في شهواته المادية فإذا ما كبح جماح الشهوات وتخلّى عنها اعتدلت أخلاقه ونال سعادته وأصبح إنساناً سوياً.

يقول التوحيدي "أما تستحيي أن تستخدم عقلك الذي هو أشرف منح الله عندك، لشهواتك التي هي أفصح الأشياء لك؟ وما في قضاء وطر ساعة؟ وما نيل لذة منقطعة يبقى عارها ويرتهنك وزرها"^(٤٩).

ويدعو التوحيدي الإنسان إلى الإخلاص والتوحيد لله تعالى تزه طرّفك عن النظر إلى غير الله، شرف فترك بالفكر في عظمة الله، يبيض وجهك بالصبر على عبادة الله، أخلص عملك من الشرك بالله... ادن حتى تصغي، أصغ حتى تسمع، اسمع حتى تفهم، افهم حتى تعقل، واعقل حتى تشرف، واشرف حتى تنقي، وانق حتى تنعم، وانعم حتى تسعد، واسعد حتى تنقي، واتق حتى ترقى، وارق

^(٤٧) التوحيدي (رسائل أبي حيان التوحيدي) ص ٣٨٧.

^(٤٨) التوحيدي (الامتناع والموانسة) - ١٣٥/١.

^(٤٩) التوحيدي (الإشارات الإلهية) - ١٦٢/١.

حتى لا تشقى" (٥٠). فبالعقل والمعرفة يشرف الإنسان وينقى وينعم ويسعد ويرقى.

الحياة الإنسانية وأصنافها:

الحياة الإنسانية قائمة على ثنائيات متناقضة والتوحيدي صنفها بشكل مبدع للغاية يقول: "اعلم أنك في هذه الدار بين طيب وخبيث، وقديم وحديث، وقول وعمل، وعذر وعذل، وإضرار واختيار، وشكر وصبر، ووفاء وجزع، وأمان وفزع، وظلمة ونور، وترحة وسرور، وغمة وانجلاء، وهبطة واعتلاء، وعافية وابتلاء، وصحوة وسكر، ولذة وحسرة، ويقين وحيرة، واجتماع وفرقة، وإمتاع وحرقة، ووحشة وأنس، وهم وعرس، وإطلاق وحبس، واستقلال ونكس، وسعاد ونحس، ونزاهة وحرص، وحفظ وإضاعة، وكتمان وإذاعة، وترك وفوت، وحياة وموت، فخذ نفسك بالإعراض عن زهرة تحول، ونعم تبلى، ومدة تنصرم، وشهوة تنقضي، وتبعة تبقى..." (٥١).

هكذا الحياة الإنسانية خير وشر، جبر واختيار، أتراح وأفراح، حياة وموت... إلى ما لا نهاية من الثنائيات المتناقضة والمتفاوتة... ولكن على الإنسان أن يعرض عن الماديات ويرقى إلى الروحانيات لأنها هي التي تبقى، أما الماديات فتزول بزوال الإنسان.

وأصناف الحياة عند التوحيدي عشرة ونجده يحللها تحليلاً دقيقاً ويربط بين حديثه عن أصناف الحياة ودراسته لموضوع السعادة، يقول: "أصناف الحياة عشرة: ثمانية تمتع بها البشر على التفاوت الواقع بين الحي والحي، واثنان مرتقيان إلى ما يشكل العلم به إلا في الجملة، ويعتاض للمرلا منه إلا مع التسليم" (٥٢).

وهذه الأصناف هي:

- ١- حياة الحس والحركة تلك الحياة المشتركة بين الإنسان والحيوان.
- ٢- حياة العلم والبصيرة وهذه الحياة تستفاد بالتأيد الإلهي والاختيار البشري، والتي يجب أن يعمل الإنسان على الاستزادة منها وإلا أصبح في عداد الحيوانات.
- ٣- حياة العمل والكدح وهي حياة العمل الصالح وهذه الحياة إذا انضمت إلى الحياتين الأوليين كملت الإنسان (٥٣). وهي حياة تقوم على الأخذ والعطاء والعشرة والصدقة.
- ٤- حياة الخلق والسجية وهي حياة الأخلاق التي من تحلى بها وهذ بها هنا عيشه.
- ٥- حياة التدبّن والسكينة ولها يهتدي الإنسان ويكمل نقصه.

(٥٠) التوحيدي (الإشارات الإلهية) - ١٨١/١.

(٥١) التوحيدي (البصائر والذخائر) - ٥/٧.

(٥٢) التوحيدي (رسائل أبي حيان التوحيدي) - ٢٧٩.

(٥٣) التوحيدي (رسائل أبي حيان التوحيدي) - رسالة الحياة - ٢٨٢.

- ٦- حياة الكمال الأول: "وهي أن تستجمع من جملة الحيوان المتقدمة" (٥٤).
- ٧- حياة الظنّ والتوهم، وهي الحياة التي يسعى فيها الإنسان إلى الشهرة والصيت والذكر. وصاحب هذه الحياة يسعى إلى "طلب النسل لأنه يتخيل لقاء النوع شبيهاً لقائه الشخصي ولهذا يقال: نسله أي نسل منه، وسلالته أي سلّ منه، ومُصاصته أي مصّ منه، والفرق بين الحياة والبقاء، والعيش والدوام، والثبات والخلد، والكون والوجود، مشهور واضح". (٥٥)
- ٨- حياة الكمال الثاني وهي حبّ العاقبة "وهي حياة العاقبة وهي تُنال بعد المفارقة التي تسمى الموت". (٥٦).
- ٩- حياة الملائكة.
- ١٠- يقال عن الصنف الأخير "إن الله عز وجل حي" (٥٧).

وهاتان الحياتان فيهما إشكال والعقل يضرب عن تحديدهما، ومن الواضح أن الحياة الأولى حياة الحس والحركة هي أدنى نوع من الحياة إذ أنها لا تميز الإنسان بما هو إنسان، وإن حياة الآخرة هي السعادة الحقيقية الباقية وهي أعظم حياة.

وهذا يتضح في حديثه عن الغبطة، فالغبطة ليست في هذه الحياة العادية في شهوة تنال أو نعمة تترك أو لين يلبس أو حلو يتطعم أو بارد يشرب إنما الغبطة فيما يقول التوحيدي: "أنت منها في قطر شاسع لا يلوح لك ولا يترأى لعينيك؛ الغبطة في النجوة من هذه الدار... إلى محل لا ألم فيه ولا أذى، ولا شوبّ به ولا قذى، إلى محل فيه النعيم صافياً والحق بادياً، إلى محل لا يعتريك فيه ملل ولا يفتاك فيه علل، حيث تنسى فيه الحزن حساً ورسماً، حيث يحكمك المولى فتتحكم، ويدنيك إلى حضرته فتتعم، حيث لا يلتهب لك في صدرك نفس، ولا يخمد بين يديك قبس". (٥٨)

أخلاق الإنسان وطبائعه:

يثير التوحيدي في العديد من كتبه مجموعة من الأسئلة التي تتعلق بالمجالات الخلقية، ويحاول تقديم رأي حول كل مجال من مجالات البحث فيها، إنه يبحث على سبيل المثال في الأخلاق وهل يمكن تغييرها أم لا؟

فيرى عدم إمكانية تغيير الأخلاق، وإن كان قد أدرك في نفس الوقت أهمية أساليب الإصلاح الاجتماعي يقول: "الخلق الحسن مشتق من الخلق، فكما لا سبيل إلى تبديل الخلق كذلك لا قدرة على

(٥٤) المصدر السابق - ٢٨٤.

(٥٥) التوحيدي (رسائل أبي حيان التوحيدي) رسالة الحياة - ٢٨٦.

(٥٦) المصدر السابق - ٢٨٨.

(٥٧) المصدر السابق - ٢٨٠.

(٥٨) التوحيدي - (الإشارات الإلهية) - ٣٥٩/١.

❖❖❖ التراث العربي ❖❖❖

تحويل الخلق، لكن الحضّ على إصلاح الخلق وتهذيب النفس لم يقع من الحكماء بالعبث والتجريف، بل لمنفعة عظيمة موجودة ظاهرة.^(٩٩) وأخلاق الإنسان مقسومة على أنفسه الثلاث: الناطقة والغضبية والشهوانية، وسمات هذه الأخلاق مختلفة، ويمكن أن يقال في نعتها على مذهب التقريب: "إنها بين المحمودة وبين المذمومة، وبين المشوبة بالحمد والذم وبين الخارجة منهما".^(١٠٠)

ويرى التوحيدي أن الإنسان نصفان "نصفه خلق، ونصفه خلق، فإذا صلح نصفاه كمل ما هو به إنسان".^(١٠١)

ولا بد من نقصان يعتري الإنسان في كل زمان ومكان ويعلّل التوحيدي ذلك: "كيلا يستبدّ باستطاعته، ولا يغرّر بكماله، ولا يختال في مشيئته، ولا يتكلم في لفظه، ولا يتحكم على ربه، ولا يعدو على بني جنسه".^(١٠٢)

والحق أن الاستعداد والتهيؤ قائمان بالإنسان التام فإذا ما أقدم على العمل والفعل بهمة وإرادة وقوة واستطاعة وذلك بانتظام هذه القوى فيه سمّي قادراً ومرة مستطيعاً ومرة قوياً.

والاستطاعة والقوة عوارِي عند الإنسان تزداد وتقص، ولهذا لم يكن الإنسان قادراً على الإطلاق ولا عاجزاً على الإطلاق إنما كان وعاءً لهما محمولاً عليهما:

"ولو عَرِيَ من القدرة رأساً لما كُلف، ولو ملك الاستطاعة رأساً لما لجأ إلى الله ولا تضرّع، فهو بين قدرة من أجلها أمر، وبين عجز من أجله اضطرّ وعذر، ولو كان مستطيعاً على الحقيقة لبطّر وأشبر، وصرّفهم على الكمال والنقص، وضربهم بالسعادة والنحس، وألجأهم إلى النفس والحس، ليعرفوا بكمالهم كمال مكمّلهم، ويعرفوا بنقصهم استنثار مذبّرهم، فيعتمدوا عليه، ولولا هذا التدبير المنطوي على الحكمة، الجاري على نظام العقول السليمة، لكانت قدرتهم تنسيهم عجزهم".^(١٠٣)

فالإنسان مهما وصل إلى الكمال يبقى منطوياً على عجز في القدرة والطبيعة.

ويرى التوحيدي أن العاقل هو من يميّز الطيب من الخبيث، والحق من الباطل، والهزل من الجدّ "ويتحلّى بالأحسن ويتخلّى عن الأقبح".^(١٠٤)

ويبدو أن التوحيدي قد وقف موقف المصلح والمربي حيث يقول: "يا هذا: إنما احتجت إلى تهذيب الأخلاق لأنك معجون من عقاقير كثيرة، ومركب من أضداد متعادية، وأشكال متوافية... فلهذا احتجت إلى ضمّ نشرها ولمّ شعنها، وتآلف شاردها، وإصلاح فاسدها، وتقويم أعوجها، وإرشاد

^(٩٩) التوحيدي (الامتاع والمتوانسة) ١/١٤٨.

^(١٠٠) انصدر السابق - ١/١٤٧.

^(١٠١) التوحيدي (الإشارات الإلهية) ١/١٦٧.

^(١٠٢) التوحيدي (رسائل أي حيان التوحيدي) رسالة في العلوم ص ٣٤٤.

^(١٠٣) التوحيدي (البصائر والذخائر) - ٨/١٢٥.

^(١٠٤) انصدر السابق ٤/١٠.

أهوجها، فإذا صلحت أخلاقك حسنت آدابك، وإذا حسنت آدابك، شرفت هممك وإذا شرفت هممك طابت مآربك .. "٦٥).

فعلى الإنسان أن يصلح ما فسد من أخلاقه ويتعلم حسن الأدب والمعاملة والمعاشرة. كما لا يمكنه أن يعيش وحده دون أن يتصل بالآخرين، لأن الاتصال بالآخرين يقوي المعرفة والإحساس بالإنسانية.

يقول "الإنسان لا يمكنه أن يعيش وحده، ولا يستوي له أن يأوي إلى المقابر، ولا بد له من أسباب بها يحيى، وبإعمالها يعيش، فبالضرورة ما يلزمه أن يعاشر الناس، ثم بالضرورة ما يصير له بهذه المعاشية، بعضهم صديقاً وبعضهم عدواً، وبعضهم منافقاً وبعضهم نافعاً، وبعضهم ضاراً، ثم بالضرورة يجب عليه أن يقابل كل واحد منهم بما يكون له مرد من دين، أو عقل أو فتوة أو نجدة، ويستفيد هو من ذلك كله ما يكون خاصاً به، وعائداً بحسن العقبي عليه." ٦٦).

والتوحيدي من خلال حديثه عن الإنسان فطن إلى كثير من الحقائق التي تدلنا على عمق فهمه للناس وحسن إدراكه لطبائع البشر، وقوة بصيرته في الحكم على مسوغات الأفعال الإنسانية. فيلاحظ أن الناس لا يثبتون على حال واحدة، ولا على أخلاق واحدة، أو عادات متشابهة، بل قد يخلص منهم من هو منافق ويتضح منهم من هو صديق أو عدو أو نافع أو ضار.

فالإنسان ذو طبيعة فاسدة اكتسبها من جهة جانبه المادي ذي الأصل الترابي الذي طغى على جانبه الروحي ذي المصدر الإلهي بسبب الظروف الحياتية، وخلّص الإنسان ممكن، وهو يتناسب طرداً مع طاعته لله وعبادته له فيمكن له أن يسمو على جزئه الترابي فيزيل حجب الجسد حتى يجد معدنه الأول وجوهر وجوده.

والتوحيدي "يفرط في تدقيق النظر في أفعال الناس ويبالغ في تركيز انتباهه على نقائصهم ومعائبهم حتى لقد انتهى به الأمر إلى إدانة الإنسان بوجه عام" ٦٧).

يقول: "الإنسان بشر، وبنيته متهافنة، وطينته منتشرة، وله عادة طالبة، وحاجة هائكة، ونفس جموح، وعين طموح، وعقل طفيف، ورأي ضعيف..." ٦٨).

والدكتور زكريا إبراهيم يحكم على التوحيدي هذا الحكم مستعيناً بهذا الشاهد؛ ولي عليه مأخذ فهذا القول لابن السّمّاك، والتوحيدي لا ينظر إلى الإنسان هذه النظرة المتدنية إنما يرى الإنسان أنه لبّ العالم... وأنه يقع في قمة الهرم... كما ورد ذكره سابقاً.

٦٥) التوحيدي (الإشارات الإلهية) - ١/١٦٨.

٦٦) التوحيدي (الصدقة والصدق) تخ. د. إبراهيم الكيلاني - دمشق ١٩٦٤ - دار الفكر - ص ١١٩.

٦٧) التوحيدي - د. إبراهيم زكريا (رسائل أبي حيان التوحيدي) ص ٧٢.

٦٨) التوحيدي - (الامتاع والموانسة) - ١/١٤١.

"وإن الإنسان إذا أحسّ بهذه الفضائل التي في نفسه، والرذائل التي في جسمه وجب عليه أن يستكثر من الفضائل ليرتقي بها إلى درجات الإلهيين".^(٦٩)

وهذه دعوة إلى الارتقاء بالنفس الإنسانية إلى درجات الإلهيين عن طريق تنقية النفس من أدران الجسد.

وإذا كان الإنسان مركباً من هذين الجزأين وجب عليه أن يكون شغله بالجسد أقل من شغله بالنفس "لأن هذا باقٍ وذاك فانٍ، وهذا جوهر واحد، وذاك جواهر متضادة، وهذا له وجود سرمدي، وذاك لا وجود له إلا في الكون الذي لا ثبات له"^(٧٠).

لقد جاءت آراء التوحيدي شاهدة على حسن فهمه للطبيعة البشرية، ناطقة بمقدرته على النفاذ إلى أعماق النفس الإنسانية.



^(٦٩) التوحيدي - (الغوامل والشوامل) - ص ٢٨.

^(٧٠) المصدر السابق - ص ٢٨.